الفصل الرابع

سبينوزا
(١٦٣٢-١٦٧٧م)

سبينوزا

• ١- سيرته وتاريخه:

تشريد اليهود:

قصة تشريد اليهود هي إحدى صور التاريخ الأوروبي. فقد طردهم الرومان من القدس عام ٧٠م عندما سيطروا عليها. فتفرق اليهود بسبب التجارة والهجرة وتوزعوا بين جميع الشعوب والقارات. وقد تعرضوا لاضطهادات من ديانات أخرى، كما منعتهم النظم الإقطاعية من ملكية الأراضي وحالت النقابات الحرفية بينهم وبين الصناعة.

إلا أن انتشار اليهود في العالم بدأ قبل عدة قرون من سيطرة الرومان على القدس. فقد سافروا بالبحر من صيدا وصور ووصلوا إلى كل بقاع العالم. حيث وصلوا إلى أثينا والأسكندرية وقرطاجنة وروما ومرسيليا وغيرها. كما وصلوا إلى البرتغال وأسبانيا أثناء خضوعها للحكم الإسلامي (٧١١م).

وفي أوروبا الوسطى، ألم اليهود بالأعمال التجارية والمصرفية واستوعبوا علوم العرب الطبية والرياضية والفلسفية. وقد لعب اليهود في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر دورًا هامًا في نقل الحضارات الشرقية إلى أوروبا الغربية. وفي قرطبة قام موسى القرطبي[1] (١١٣٥-١٢٠٤م) أعظم طبيب في عصره بكتابة تعليقاته

(١) - أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي: (الحاخام موشيه بن ميمون) واشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى. وُلد في قرطبة ببلاد الأندلس، ومن هناك انتقلت عائلته عام ١١٩٥م إلى مدينة فاس المغربية حيث درس هناك، ثم انتقلت الأسرة في عام ١١٦٥م إلى فلسطين، واستقرت في مصر آخر الأمر، وهناك عاش حتى وفاته. عمل في مصر نقيبًا للطائفة اليهودية، وطبيبًا لبلاط الوزير الفاضل والسلطان صلاح الدين الأيوبي وكذلك استطبّه ولده الملك الأفضل علي. وكان فريد زمانه في صناعة الطب ومتفننًا في العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة. ويوجد معبد يحمل اسمه في العباسية بالقاهرة. (المترجم)

على التوراة تحت عنوان "إرشاد الحائر". وفي برشلونه أعلن "حسداي بن شبروت" عن آرائه الدينية التي هزت اليهود في كل مكان.

ازدهر اليهود في أسبانيا في ظل حكم المسلمين، لكن عندما أخرج "فرديناند" المسلمين منها، فقد اليهود الحرية التي تمتعوا بها في عصر التسامح الإسلامي. وبدأت محاكم التفتيش تطاردهم وتخيرهم بين التعميد ومزاولة الطقوس المسيحية أو مصادرة أموالهم والنفي. ولكن ذلك لم يكن يعني أن الكنيسة تعادي اليهود، فقد احتج البابوات على أعمال التفتيش الهمجية. إلا أن ملك أسبانيا كان يريد زيادة أمواله بنهب ثروات اليهود.

اختار كثير من اليهود الخيار الأصعب وهو الهجرة، وحاول كثير منهم دخول موانئ إيطالية لكن لم يسمح لهم بذلك. وتمكن كثير منهم من الإبحار إلى الشواطئ الأفريقية، وهناك ذُبح بعضهم بسبب اعتقاد بعض الأفارقة بأنهم بلعوا ما معهم من مجوهرات قبل مغادرة أسبانيا. وذهب قليل منهم إلى البندقية في إيطاليا، كما مول بعضهم رحلة المستكشف كولومبس إلى أمريكا علهم يجدون وطنًا جديدًا هناك.

وركب بعض اليهود السفن إلى شمال أوروبا وابتعدوا عن بريطانيا وفرنسا المعاديتين لهم، لكنهم وجدوا ترحيبًا في هولندا. وكانت أسرة "أسبينوزا" البرتغالية ممن نزلوا إلى أرض هولندا.

وفي ذلك الوقت بدأت أسبانيا في التفكك وبدأ اليسر والرخاء في هولندا، وتمكن اليهود من بناء أول كنيس لهم في أمستردام في عام ١٥٩٨م. وبنوا كنيسًا آخر بعد ٤٥ عامًا. ومر اليهود بفترة من السعادة والراحة إلى أن جاء منتصف القرن السابع عشر، حيث احتدم الجدل داخل الكنيس اليهودي بعدما كتب "أوريال كوستا" كتابًا هاجم فيه الاعتقاد بالآخرة بشدة. وتمكن الكنيس من إجباره على التراجع عن أقواله حتى لا يثير سخط الدولة التي رعتهم واستقبلتهم. وكان التراجع يعني أن يستلقي ذلك الكاتب على أرض مدخل الكنيس، ويدوس المصلون الداخلون على جسده لإذلاله. لكن "أوريال كوستا" لم يفعل ذلك، بل ذهب إلى بيته وأطلق الرصاص على نفسه.

في ذلك الوقت (١٦٤٠م) كان "باروخ أسبينوزا" أشهر يهودي في العصر الحديث وأعظم فلاسفته لا يزال طفلاً في الثامنة من عمره. وكان التلميذ المحبوب والمفضل في الكنيس.

ثقافة سبينوزا:

تأثر سبينوزا بالتشتت اليهودي في أنحاء العالم، وجعل ذلك الأمر منه يهوديًا متعصبًا، بالرغم من حرمانه من الكنيس. وكان أبوه تاجرًا كبيرًا، إلا أن سبينوزا لم يهو التجارة وفضل قضاء وقته في الكنيس اليهودي. فانكب على القراءة وقرأ الكثير من الأعمال. ثم انتقل إلى قراءة التوراة والتلمود (مجموعة شرائع وسنن اليهود) وقراءة كتب ابن ميمون وليفي بن جيرسون وابن عزرا وحسداي بن شبروت[١]. كما قرأ فلسفة ابن جبريل وموسى القرطبي الصوفية المعقدة.

لكن كلما قرأ سبينوزا من كتب تلاشت اليقينيات في نفسه وتحولت إلى شكوك وحيرة. فأراد أن يواصل قراءاته ومن أجل ذلك بدأ في دراسة اللغة اللاتينية على يدي عالم هولندي يسمى "دندي". وكان ذلك العالم متمردًا وبه بعض سمات الإلحاد وسبق له أن اشترك في مؤامرة ضد ملك فرنسا وحكم عليه بالإعدام في عام ١٦٧٤م. أحب سبينوزا ابنة ذلك العالم الجميلة، ودفعه ذلك إلى الإقبال على التعلم للتقرب إليها أيضًا، إلا أنها سرعان ما هجرته وفضلت عليه آخر أغرقها بالهدايا الثمينة، وفي تلك اللحظة أصبح سبينوزا فيلسوفًا.

وعلى أي حال، تمكن سبينوزا من إجادة اللغة اللاتينية، فأصبحت طريقه إلى الفكر الأوروبي في العصور الوسطى والقديمة. وقد درس أرسطو وأفلاطون، إلا أن أثر ديمقريطس وأبيقور والرواقيون فيه كان واضحًا. كما درس فلسفة ذلك الثائر العظيم "برونو[٢]" الذي طاف ببلاد كثيرة، والذي حكمت عليه محاكم التفتيش بالإعدام حرقًا.

---

(١) - أربعة من الفلاسفة اليهود، وقد تناولنا (ابن ميمون) بالتفصيل في الصفحة السابقة. (المترجم)

(٢) - جوردانو برونو (١٥٤٨-١٦٠٠م) في روما. وكان دارسًا دينيًا وفيلسوفًا إيطاليًا حكم عليه بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية. كان راهبًا أيضًا في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة فيما بعد. وقد اعتقد بصحة نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض على الرغم من أنها كانت محرمة من قبل رجال الدين آنذاك وذهب إلى أبعد منها آن ذاك بوضعه فرضية أن النظام الشمسى هو واحد من مجموعة نظم تغطى الكون. كما افترضت نظريته أن كلًا من النظم النجمية الأخرى تشتمل على كواكب ومخلوقات عاقلة أخرى. (المترجم)

وكان هذا الفيلسوف الإيطالي ثريًّا بالأفكار والآراء. وأول تلك الأفكار فكرة وحدة الوجود.

وأخيرًا تأثر سبينوزا أيضًا بديكارت واضع المبدأ الذاتي المثالي في الفلسفة الحديثة. حيث يؤمن ديكارت بأسبقية الوعي. أي أن العقل يدرك نفسه بسرعة أكثر من إدراكه ومعرفته بأي شيء آخر. وعلى ذلك تبدأ فلسفته بالعقل والفرد ذاته، وتبدأ بالجملة الشهيرة: "أنا أفكر .. إذن أنا موجود." كما اهتم سبينوزا بفلسفة ديكارت أيضًا بسبب تفسيره للعالم أجمع ماعدا الله والنفس تفسيرًا يعتمد على القوانين الآلية والرياضية. حيث يرى أن أجساد الحيوانات وجسم الإنسان تخضع للحركة الميكانيكية الآلية وأن كل الأجسام ما هي إلا آلات. لكن في خارج هذا التكوين يوجد إله، كما توجد روح داخل الجسم.

حرمانه من الكنيس اليهودي:

هذا هو ما اهتم به سبينوزا أيام شبابه، وكان يبدو هادئًا، لكن نفسه كانت مليئة بالهموم والأحزان. وقد تم استدعاؤه أمام كبار رجال الكنيس اليهودي في عام ١٦٥٦م بتهمة الضلال الديني. ووجهوا إليه الأسئلة التالية:

هل صحيح أنك قلت لأصدقائك إن لله جسد وهذا الجسد مادي ؟

هل قلت لهم إن الحديث عن الملائكة هذيان؟

وأن النفس قد تكون مجرد حياة؟

وأن التوراة القديمة لم تتحدث عن الخلود؟

وفي الحقيقة لا يوجد ما ينقل إلينا إجاباته، إلا أننا نعرف نتيجة ذلك التحقيق وهي عرض براتب سنوي مقابل ألا يخرج سبينوزا عن معتقدات الكنيس اليهودي والديانة اليهودية. كما وصل إلينا وصف لطقوس الاستجواب. حيث كانت الأبواق الضخمة تصدر أصواتًا عالية من وقت لآخر. وكانت الأضواء قوية في بداية الحدث ثم بدأت تخبو تدريجيًا. وبعد ذلك خرج رجال الكنيس من القاعة في ظلام حالك.

وبعدما اتضحت آراء "باروخ سبينوزا" لكبار رجال الكنيس، حاولوا بشتى الطرق أن يرجعوه عن غيه وضلاله. وفشلوا في ذلك وتمادى في الضلال. وبدأ يصلهم كل يوم

مزيد من الأدلة حول البدع الدينية التي كان ينشرها ويجاهر بها. وأخيرًا قرر المجلس إنزال اللعنة والحرمان على سبينوزا وفصله عن شعب إسرائيل. وحرّم القرار التعامل معه أو الاقتراب منه أو قراءة ما يكتب[1].

عزلته وموته:

قابل سبينوزا ذلك القرار بشجاعة وقوة. وقال: "لم يرغموني على شيء ولم يحل هذا القرار بيني وبين أي شيء أقوم به." لكنه وجد نفسه وحيدًا بلا رحمة، ولا يوجد أسوأ من أن يجد الإنسان نفسه مفصولاً عن بني جنسه. وقد حرم سبينوزا نفسه من دينه وعقيدته قبل أن يحكم عليه بذلك بوقت قليل. فعاش وحيدًا منبوذا. ثم طرده أبوه وكان يأمل أن يتفوق في الكنيس لا أن يطرد منه. كما حاولت أخته الاحتيال عليه حتى تفوز بقدر أكبر في الميراث القليل الذي تُرك له، وتخلى عنه أصدقاؤه. إلا أنه ظل قويًا ومتمسكًا بروح المرح.

وبينما كان سبينوزا يسير في الشارع في أحد الأيام، هاجمه أحد المتطرفين اليهود، فأراد أن يثبت قوة تدينه. فطعنه بخنجر في رقبته. إلا أن سبينوزا تحرك بسرعة والدماء تنزف منه وكان الجرح بسيطًا فلم يمت. لكنه أدرك ما يلاقيه الفلاسفة من أخطار. فاستأجر غرفة في بيت يقع بعيدًا عن أمستردام. ويقال إنه غير اسمه لدواعي التخفي. وكانت الأسرة صاحبة البيت الذي سكن فيه أسرة مسيحية ترفض فكرة تعميد الأطفال. فأحبوه وأحبوا أفكاره الغريبة بالنسبة لمجتمعهم. فبدأ في السهر مع تلك الأسرة، يدخن الغليون ويحدثهم عن أفكاره ويفرج ما بهم من هموم. كما بدأ يعلم الأطفال في مدرسة قريبة منهم. ثم عمل بعد ذلك في صقل العدسات، وهكذا استفاد مما كانت تشترطه شريعة اليهود من ضرورة تعلم كل تلميذ لحرفة يدوية. وذلك لأن الدراسة والتعليم لا يكفلان رزقًا يساعد على الحياة.

وبعد ذلك انتقل صاحب البيت للعيش في رينسبرج قرب ليدن، فانتقل سبينوزا معه. ولا يزال هذا البيت قائمًا وسمي الشارع على اسمه "الفيلسوف سبينوزا". عاش

---

(١) - هناك وصف آخر لجلسة محاكمة سبينوزا وردت في كتاب «اليهودي العالمي» لهنري فورد الذي ترجمته إلى اللغة العربية وصدر عن دار ابن سينا بالقاهرة، وقد اختصرت ذلك الوصف المأخوذ من عدة مصادر، وأوردته في تعقيبي على هذا الكتاب. (المترجم)

سبينوزا هناك عيشة الكفاف في غرفة على سطح البيت، وكان من الممكن ألا يخرج من غرفته لمدة ثلاثة أيام، ويكتفي باستقبال الطعام من أصحاب البيت، وكان عمله في صقل العدسات يدر عليه دخلاً بسيطًا جدًا, فكان سبينوزا يراجع حساباته ومصروفاته كل ثلاثة أشهر حتى لا تتجاوز ميزانيته السنوية القدر البسيط الذي يستطيع توفيره من المال.

ويمكن أن نتخيل صورة وصفية له مما نُقل إلينا عنه. فهو متوسط القامة ووسيم الوجه وأسمر اللون. وشعره أسود ومجعد، وحواجبه طويلة وسوداء. وهذا الوصف يوضح أنه ينحدر من أسرة يهودية برتغالية. وكان سبينوزا لا يهتم بملابسه، وقد زاره أحد أعضاء مجلس الشورى في يوم ما وعرض عليه ثوبًا جديدًا بدلاً من ثوبه المهلهل، فرد قائلاً: "الثوب الجميل لا يزيد من قدر الرجل، كما أنه ليس من المعقول أن نلف أشياء زهيدة في غلاف ثمين."

خلال السنوات الخمس التي قضاها سبينوزا في رينسبرج ألف رسالة أسماها "تحسين العقل" وكتابًا بعنوان "الأخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي" وانتهى من تأليفه في عام ١٦٦٥م، لكنه لم يحاول نشره لمدة ١٠ أعوام.

وفي عام ١٦٧٥م عاد سبينوزا إلى أمستردام، وكان على ثقة من أنه يستطيع نشر الكتاب، إلا أن شائعة سرت في المدينة تقول إنه سينشر كتابًا ينكر فيه وجود الله، ويحتمل أن يكون رجال الدين هم من نشروا هذه الشائعة عندما علموا بعودته. وعندما لاحظ تربص رجال الدين له في كل مكان قرر تأجيل نشر الكتاب.

ولم يُنشر الكتاب إلا بعد موت سبينوزا في عام ١٦٧٧م ونشرت معه رسالة قصيرة كان سبينوزا لم يفرغ من كتابتها بعد. كتبها باللغة اللاتينية وهي لغة العلم والفلسفة في أوروبا في ذلك الوقت. وفي عام ١٨٥٢م اكتشفت رسالة كتبها باللغة الهولندية بعنوان "الله والإنسان" ويبدو أنه كان يريد أن يضعها كمقدمة لكتابه "الأخلاق".

أما الكتب التي نشرها سبينوزا في حياته فهي: "مبادئ الفلسفة الديكارتية" و"رسالة في الدين والدولة". وقد ظهرت هذه الكتب في عام ١٦٧٠م. وسرعان ما وضعت كتبه في القائمة السوداء وحظرت الحكومة بيعها. وسرعان ما ظهرت كتب كثيرة للرد عليه، وقد وصفه أحد تلك الكتب بأنه "الملحد الأكبر" وأنه "أفجر من ظهر

على وجه الأرض". إلا أن كتبه نالت استحسان البعض الآخر وقال عنها أحدهم: "إنها كنز أبدي عظيم الفائدة." وعندئذ تلقى سبينوزا الكثير من الرسائل ممن يحاولون هديه وإصلاحه.

ومن الأسئلة التي وجهت إليه في النقد ما يلي:

- تزعم أنك توصلت إلى الفلسفة الحقة، فكيف عرفت أنها أفضل الفلسفات؟
- كيف تجرؤ على رفع نفسك فوق رجال الدين والأنبياء والرسل والشهداء ورجال الكنيسة وأنت إنسان عادي؟
- ما هو الأساس الذي يقوم عليه كلامك ؟ وأي غرور شيطاني ينفخ فيك؟
- يا من تدعي أنك وجدت أفضل الديانات، من أنبأك أنك اخترت أفضلها؟

إلا أن هناك من ساندوه وأيدوه، وذهب كثير منهم لزيارته، منهم العالم ومنهم الفيلسوف ومنهم التاجر. وقد توسل أحد التجار لسبينوزا أن يقبل منه ألف جنيه هدية منه، إلا أن سبينوزا أقنعه أن يترك ثروته لأخيه بدلاً منه. وعندما مات ذلك التاجر وجدوا في وصيته تكليف لهم بدفع مبلغ ٢٥٠ جنيهًا سنويًا من دخل أملاكه لسبينوزا. أراد سبينوزا أن يرفض، إلا أنهم ألحوا عليه فقبل بمبلغ ١٥٠ جنيهًا فقط في العام. كما قرر قاضي قضاة جمهورية هولندا صرف راتب سنوي قدره ٥٠ جنيهًا لسبينوزا. كما أن الملك لويس الرابع عشر (ملك فرنسا في ذلك الوقت) عرض على سبينوزا أن يقدم له مبلغًا كبيرًا جدًا مقابل أن يكتب إهداء له في مقدمة كتابه الثاني، إلا أن سبينوزا رفض بطريقة مهذبة.

وبعد ذلك انتقل سبينوزا ليعيش في ضواحي لاهاي في عام ١٦٦٥م، وفي عام ١٦٧٠م عاش في لاهاي نفسها. وخلال تلك السنوات توطدت العلاقة بينه وبين قاضي القضاة. وعندما قتلت الجماهير الغاضبة قاضي القضاة وأخيه ظنًا منهم أنه السبب في هزيمة القوات الهولندية على أيدي الفرنسيين في عام ١٦٧٢م، تأثر سبينوزا بشدة وبكى كثيرًا على صديقه. لكن عندما دعاه قائد الجيش الفرنسي ليعرفه بمحبيه، لم يجد سبينوزا ما يمنع من تلبية الدعوة، وكان عند عودته يخشى من محاولة الناس إيذائه، وتوتر صاحب البيت الذي يقيم فيه بشدة خوفًا أن يصاب بأضرار، إلا أن سبينوزا وعده بالخروج للناس إن جاءوا يطلبونه، لكن ذلك لم يحدث.

وجاء الفصل الأخير في حياة سبينوزا، وكان في الرابعة والأربعين من العمر، وقد ورث مرض السل عن والديه وتأثرت رئتاه بشدة بسبب الأتربة والحياة الفقيرة التي عاشها. فبدأ يشعر بصعوبة في التنفس وكان يتوقع الموت في أي وقت، وكان يريد طباعة كتاب "الأخلاق" بعد وفاته. وضع الكتاب في أحد أدراج المكتب وأغلقه بالمفتاح. وطلب من صاحب البيت أن يسلم المكتب والمفتاح للناشر في أمستردام عند وفاته.

وفي يوم الأحد ٢٠ فبراير من عام ١٦٧٧م خرجت الأسرة التي كان يعيش معها إلى الكنيسة وبقي سبينوزا بالبيت بعد أن أكد لهم أنه بخير. وبقي معه الطبيب الذي يعالجه. وعندما عادت الأسرة وجدته قد فارق الحياة. وقد بكاه الكثيرون. فقد أحبه البسطاء لرقته وأحبه العلماء لحكمته. فانضم الفلاسفة والقضاة إلى عامة الشعب وساروا وراء نعشه إلى مثواه الأخير. واجتمع عند قبره رجال من كل دين.

• ٢- رسالته في الدين والدولة:

ولنتناول الآن كتب سبينوزا الأربعة وفقًا لترتيب تأليفها. وقد يكون كتاب "الدين والدولة" هو أقل كتبه متعة لقارئ اليوم. وسبب ذلك هو توسع سبينوزا الشديد في تأكيد وجهات نظره، وبذلك افتقدت كتابته للغموض الذي يحبه المثقفون ويشجعهم على البحث والاطلاع.

يقوم كتاب "الدين والدولة" على مبدأ أساسي وهو أن لغة التوراة يغلب عليها الاستعارة والمجاز، وهذا مقصود. ولا يعود ذلك إلى حب الشرق للأدب والألفاظ الجميلة، ولكن لأن الأنبياء مالوا إلى تكييف أنفسهم مع رغبات الناس[١].

فقد كُتب كل كتاب مُنزل لشعب محدد أولا، ثم لدعوة باقي شعوب العالم ثانيًا. ولذلك تناسب الكتاب مع عقلية الجمهور الموجه إليه. وذلك لأن الكتاب المُنزل لا يهدف إلى مخاطبة العقل وإقناعه، بل إلى السيطرة عليه وجذب خياله. ومن أجل ذلك يكثر في تلك الكتب الحديث عن المعجزات[٢].

---

(١) - حاشا لله، فالأنبياء لم يكتبوا تلك الكتب، حتى يراعوا فيها ما يحبه الناس من أساليب. إنها كتب أوحى بها الله لأنبيائه ولا دخل لأي منهم بنصوصها، فهم نقلوا ما أوحي إليهم كما هو. (المترجم)

(٢) - هذا نوع من التشكيك في الكتب السماوية بالإجمال مرة أخرى، والقرآن الكريم وهو الكتاب الوحيد =

ويعتقد الناس أن قوة الله وعنايته تتجليان بوضوح عندما تقع حوادث خارقة تتناقض مع ما ألفوه من الطبيعة. ويظنون أن الله ساكن (حاشا لله) لا يعمل مادامت الطبيعة تعمل بانتظام. لكن العكس هو الصحيح، فالله يعمل والطبيعة هي الساكنة.

ويميل الناس أيضًا إلى الاعتقاد بأن الله يغير نظام الطبيعة من أجلهم، مثلما اعتقد اليهود أن الله أطال لهم النهار مما دفعهم إلى الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار. ولهذا السبب حكى لنا الرُسل حكايات المعجزات. لذلك فإن تأثير الرسل والأنبياء على الناس أكبر من تأثير الفلاسفة والعلماء. حيث يستخدمون الأسلوب البياني المؤثر. يقول سبينوزا: "ولو فسرنا التوراة على هذا الأساس فلن نجد ما يتناقض مع العقل. أما إن فسرناها تفسيرًا حرفيًا، فسنجدها مليئة بالمتناقضات والأخطاء غير المفهومة[1].

وسبينوزا لا يفرق ما بين الإنجيل والتوراة، ويعتبر أن اليهودية والمسيحية دين واحد. وقد وجد تفسيرًا فلسفيًا واحدًا لجوهر العقيدتين. فهو يقول: "كنت أتعجب من افتخار الناس بتعاليم الديانة المسيحية التي تحض على الحب والسعادة والسلام والإحسان إلى الجميع. إلا أنهم يقاتلون بعضهم البعض بكراهية شديدة أصبحت مقياسًا للعقيدة عندهم بدلاً من القيم والفضائل النبيلة التي يدعون إليها." كما رأى أنه لا يوجد ما يمنع الفلسفة اليهودية والفلسفة المسيحية من الوصول إلى عقيدة واحدة تساعدهم على العيش في سلام.

ويعتقد سبينوزا أن أول خطوة في طريق ذلك الاتفاق بين اليهود والمسيحيين هي الاتفاق حول موضوع المسيح والتخلي عن المعتقدات المستحيلة. وكان يرى أن المسيح بشر ولا يمكن أن يكون إلهًا. وأن الله أرسله لهداية جميع البشر وليس لليهود فقط. لذلك فقد كيف المسيح نفسه لتلك المهمة ووضع كل تعاليمه في شكل قصصي. كما استعان بالأمثلة البسيطة لتوضيح التعاليم وتقريبها إلى الناس.

= الذي حفظه الله من أي تبديل إلى يومنا هذا يطلب من الناس التدبر والتفكير في آيات الله في كونه، فهذا يزيدهم إيمانًا. يقول تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت - ٢٠). (المترجم)

(١) - بالطبع لأنه يتحدث عن كتب لم تترك كما هي بل تعرضت لكثير من التحريف. فالكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله لا أخطاء فيها ولا تناقضات (حاشا لله)، كما أن ما فيها من أحكام يتسم بالوضوح والبيان، بحيث لا يجد القارئ صعوبة كبرى في فهم المعنى. (المترجم)

• ٣- تطور العقل:

يبدأ سبينوزا كتاب "تطور العقل" بالحديث عن الأسباب التي دفعته للتضحية بكل شيء من أجل الفلسفة. فيقول إن التجارب علمته أن ما يقع في الحياة العادية عبث وباطل. وأن كل ما كان يخشاه لا خير فيه ولا شر بل مجرد أثر على العقل. وأنه عزم على البحث عما هو خير فعلاً يمكن أن يؤثر في العقل ويستغني به عن أي شيء آخر.

لذلك فقد عزم سبينوزا البحث عن سعادة سامية ودائمة. لكنه رأى أن الشرف والثراء لهما فوائد كثيرة سيحرم منها إن أراد البحث في موضوع جديد. وكلما زاد الشرف زادت السعادة.

ثم تحدث سبينوزا أيضًا عن علاقة كثير من الأشياء بالسعادة وانتهى من كلامه بالقول: "إن الخير الأعظم هو معرفة الاتحاد الذي يربط العقل بالطبيعة. فكلما زاد فهمنا لذلك الاتحاد زادت قدرتنا على توجيه النفس ووضع ضوابط لها، وكلما زاد فهمنا لنظام الطبيعة زادت قدرتنا على التحرر مما لا فائدة من ورائه.

فالعلم إذن هو أحب ما نسعى إليه، فهو القوة والحرية. والسعادة الدائمة الوحيدة هي في طلب العلم ومتعة المعرفة. لذلك يجب على الفيلسوف أن يظل مواطنًا بسيطًا وإنسانًا عاديًا. لكنه وضع قواعد السلوك الثلاثة التي نراها متفقة مع سلوكه الشخصي وهي:

١- أن يتحدث الفيلسوف بطريقة يفهمها الناس وأن يفعل كل ما يمكن فعله حتى يحقق أهدافه.

٢- لا يتمتع الفيلسوف بالملذات سوى ما يلزم منها للحفاظ على صحة جيدة.

٣- أن يبحث الفيلسوف عما يكفيه من مال فقط. وهو المال الضروري لحفظ حياته وصحته، وأن يقبل بالعادات التي لا تتعارض مع ما يبحث عنه.

إلا أن سبينوزا بناء على ذلك يجد نفسه في مواجهة مشكلة، وهي تتلخص في الأسئلة التالية:

- كيف أعرف أن ما أتوصل إليه من معرفة هي الحق ؟
- هل من الممكن أن أثق في حواسي فيما تنقله لعقلي من احساسات؟

- هل من الممكن الاعتماد على العقل وما يتوصل إليه من نتائج بسبب تلك الأحاسيس؟

لذلك وقبل كل شيء لابد من أن نجد وسيلة لتطوير العقل وتنقيته. كما يجب علينا التمييز بين أنواع المعرفة والاعتماد على أفضلها فقط.

وأنواع المعرفة هي:

١- معرفة تأتي عن طريق الأخبار أو الشائعات، كمعرفة الفرد بتاريخ ميلاده ومكان مولده.

٢- معرفة غامضة، كأن يكتشف طبيب العلاقة بين عقار ما والشفاء من مرض محدد. أي أن الطبيب لم يجر تجارب لمعرفة أسباب تلك العلاقة.

٣- معرفة تحدث عن طريق الاستدلال السريع أو المعرفة التي تتم بسبب التفكير. مثل إدراك أن حجم الشمس كبير عندما ألاحظ أن كل شيء يصغر حجمه كلما ابتعد عن عين الناظر. وهو نوع أرقى من النوعين الأولين. لكن من الممكن دحضه أيضًا بإجراء التجارب.

٤- والنوع الرابع من أنواع المعرفة هو ما يأتي عن طريق الاستدلال، وهذا يستخدم في حل المعادلات الرياضية إلا أن سبينوزا يعترف بأسى بأن ما نتوصل إليه عن طريق هذا النوع من المعرفة قليل جدًا.

وفي كتاب الأخلاق، يدمج سبينوزا النوعين الأولين من المعرفة في نوع واحد.

• ٤- الأخلاق:

كتاب "الأخلاق" لسبينوزا هو أرقى ما أنتجته الفلسفة الحديثة، وقد أعده سبينوزا في شكل هندسي حتى يوضح أفكاره ويبسطها. لكنه حقق النتيجة العكسية، فقد جاء الكتاب موجزًا وغير واضح، يحتاج كل سطر فيه إلى كتاب من الشرح والتعليق.

فقد اشترط سبينوزا أن يكون العقل الرياضي المدرب أساسًا لجميع الأبحاث العلمية. وبذلك تكون النتيجة بالنسبة لنا نحن قراء الكتاب هي التركيز المجهد في المشكلة التي يتناولها والشكل الذي يقدمها به. وقد نعزي أنفسنا بالقول بأن تلك

الفلسفة الهندسية تبدو كلعبة الشطرنج بما فيها من قطع مثل الملك والفيل والحصان والجندي ولكل منها قيود في الحركة ومميزات يلتزم بها.

وطالب الفلسفة في العصر الحديث يتعثر ويمل من تلك المصطلحات التي استخدمها سبينوزا، وهذا يجعل من الضروري ألا نقرأ الكتاب فقط ولكن لابد من دراسته وتحليله. وذلك لأن سبينوزا لخص في مائتي صفحة عصارة فكره. وكل جزء في ذلك الكتاب مبني على ما قبله. لذلك فلن نفهم أي جزء في الكتاب ما لم نكن قد قرأنا الكتاب بالكامل.

وقد أدرك سبينوزا صعوبة فهم كتابه، فهو يقول في الجزء الثاني منه: "سيرتبك القارئ دون شك وسيجد أن كل شيء يؤدي به إلى التوقف عن القراءة. إلا أنني أرجو أن يتقدم القارئ ببطء ولا يصدر حكمًا إلا بعد قراءة كامل الكتاب." لذلك فلا تقرأ الكتاب كله دفعة واحدة، اقرأه على عدة مرات. وبعد أن تنتهي اقرأ ما كتب عنه من تعليقات مثل تعليقات "بولوك" و"مارتينيه". ومن الأفضل أن تقرأ الاثنين معًا. وعندما تقرأ الكتاب للمرة الثانية ستحب الفلسفة طوال حياتك. وإليك أهم ما ورد في هذا الكتاب:

الطبيعة والله:

يقوم أسلوب سبينوزا معتمدًا على مصطلحات ثلاثة مهمة، وهي:

- الجوهر: ومعناه الحقيقة الثابتة والقوانين التي تحكم العالم.
- الصفة: وهي إحدى مظاهر الجوهر وحقيقة غير شاملة وغير عامة.
- العَرَض: وهو شيء محدد أو حادث أو واقعة أو فكرة.

المصطلح الثاني وهو "الصفة" بسيط المعنى وسنترك التعليق عليه الآن مؤقتًا. أما العَرَض، فهو حادث فردي أو صفة زائلة أو واقعة لا تتكرر كثيرًا. كما يمكن أن تكون غير متوقعة.

أما ما يسميه سبينوزا الجوهر فهو مصطلح دار حوله خلاف طوال ثمانية أجيال. وهناك خطأ واحد يجب ألا نقع فيه عند تناولنا للمصطلح "جوهر". فهو ليس المادة التي يتكون منها الشيء، كأن نقول إن جوهر الكرسي هو الخشب. لكن ولأننا تناولنا

كتبه الأخرى ونعلم أنه في كتاب "تطوير العقل" يعني بالجوهر ما أشار إليه في ذلك الكتاب بمصطلح "النظام الأبدي".

وبعد دراسة تلك المصطلحات في عدة كتب من كتبه نجد أن سبينوزا يقسم الكون إلى جوهر وعَرَض، قديم وحادث، الله والعالم المحسوس. أما الجوهر والله فهي حقائق غير مادية، وهذا يختلف عن العالم المحسوس من حولنا. وقد يساعدنا المقطع التالي من كتابه على توضيح فكرته: "أتصور الله والطبيعة في صورة تختلف تمامًا عما يراه المسيحيون، فأنا أعتقد أن الله أصل وليس أمر طارئ، كما أنه (جل وعلا) سبب في جميع الأشياء. فكل شيء من الله وكل شيء يحيا ويتحرك بإرادته. أما من يقولون إن هدفي هو أن أثبت أن الله والطبيعة شيء واحد فلم يفهموني، ويعتقدون أن للطبيعة كتلة من المادة المجسدة، وأنا لم أقصد ذلك بالطبع."

كما أنه كتب أيضًا في كتابه عن "الدين والدولة" أنه يقصد بمساعدة الله للطبيعة التي لا تتغير أن قوانين الطبيعة العامة وأحكام الله الخالدة شيء واحد. وكل شيء ناشئ من طبيعة الله اللانهائية، مثلما نعلم تمامًا أن زوايا كل مثلث تساوي ١٨٠ درجة أي زاويتين قائمتين. فالله هو المسبب لكل شيء وهو واضع قوانين العالم. تمامًا مثلما يكون بناء الجسر قائم على حسابات وقوانين رياضية.

فبدون القواعد الأساسية التي بني على أساسها أي جسر، يتصدع الجسر وينهار تمامًا. لذلك فالعالم مدعوم بقوة الله مثل الجسر القائم بناؤه على قوانين رياضية وميكانيكية.

أما إرادة الله وقوانين الطبيعة فما هما إلا اسمين لشيء واحد، إنهما يطلقان على حقيقة واحدة. وبالتالي فإن كل ما يقع في العالم ما هو إلا نتيجة آلية لقوانين الطبيعة الثابتة التي وضعها الله وهي ليست قاصرة على المادة والجسم فقط بل تشمل العقل أيضًا.

كما رأى سبينوزا أن العالم جبري ومسير وليس له هدف، وهو يسير في طريق لا فكاك منه. ولأننا بشر فإننا نفترض أن كل الأحداث تنتهي عند الإنسان لأنها وضعت لصالحه ووفقًا لحاجاته. لكن هذا وهم مثل كثير من الأوهام التي نعتقد بها. وقد وقعت أكبر أخطاء الفلسفة بسبب التركيز على أهدافنا وما نفضله في هذا العالم،

ومن هنا نشأ الشر. حيث نكافح شرور الحياة حتى نحصل على خيرات الله، ونسينا ما علمه الله لسيدنا أيوب. والله تعالى فوق خيرنا وشرنا، وهما أمران نسبيان يعودان على الأغلب إلى أذواق البشر وأهدافهم.

فإن بدا لنا في هذه الطبيعة شيء سخيف أو مضحك، أو غامض أو شرير، فهذا لأننا نعرف القليل فقط من الأشياء ولا نحيط بكل شيء علما. كما أننا جاهلون بنظام الطبيعة المتماسك. أما بالنسبة للخير والشر، فهي أمور نسبية. فمن الممكن أن يكون نفس الشيء خيرًا وشرًا في نفس الوقت. مثل الموسيقى مثلا، قد تكون خيرًا لمن يريد سماع شيء يبهجه، وفي نفس الوقت تكون شرًا لمن يرغب في الراحة والهدوء.

كما رفض سبينوزا فكرة تصور الله على أنه شخص، وهو يرفض تلك الكينونة بأي معنى من معاني هذه الكلمة. كما أنه رفض التحدث عن الله بالتذكير والتأنيث (حاشا لله). وهو يجيب على رجل اعترض على التصوير غير الواضح الذي يقدمه سبينوزا لله، فيقول: "أنا أعترض على إسقاط الصفات البشرية على الله (جل وعلا) والله أكبر وأعلى من ذلك بكثير. وليس لنا أن نسقط صفات بشرية عادية على الله (جل وعلا)."

وأخيرًا فإن إرادة الله عند سبينوزا هي مجموع الأسباب والقوانين التي وضعها للكون. وعقل الله[1] عند سبينوزا هو كل القوى العقلية الموجودة في كل مكان وزمان. والله هو الحقيقة الأبدية وراء حركة الكون ولا يمكن أن يقال إن له عقلًا وجسمًا. فهذا تشبيه لا يليق بالكائنات التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

المادة والعقل :

- ما هو العقل؟ وما هي المادة ؟
- هل العقل مادي كما يظن بعض ذوي الخيال المحدود؟
- هل الجسم مجرد فكرة كما يظن بعض الخياليين؟

(١) - تعالى الله عما يصفون، يقول سبينوزا كلامًا جميلًا عن وجوب عدم مقارنة الله عز وجل بالصفات البشرية ثم يسقط فيما نهى عنه. فالعقل والإدراك وغير ذلك من صفات تتعالى عنها ذات الله جلا وعلا. (المترجم)

يجيب سبينوزا عن تلك الأسئلة بالقول بأن العقل ليس مادة والمادة ليست فكرًا. وليست الدماغ سببًا وليست نتيجة. بل هي عملية واحدة نراها من الداخل فكرًا ومن الخارج حركة ووجودًا. كما أن نظام الأفكار ووجودها هو نفسه نظام الأشياء وارتباطها. وهكذا فإن الفكر والمادة هما شيء واحد يبدو مرة كفكر ومرة أخرى يبدو في صورة مادة.

وبعد أن أزال سبينوزا الفرق بين الجسم والعقل، وبعد أن جعل منهما حقيقة ذات وجهين، قلل الفارق بين العقل والإرادة إلى أن قال إنهما حقيقة واحدة. وكل ما بينهما من فروق هي فروق في الدرجة وليست في النوع. ولا يوجد في العقل ملكات ولا يوجد هناك شيء منفصل قائم بذاته يسمى عقلاً أو إرادة أو خيالاً أو فكرة قائمة بذاتها. كما أن كلمة العقل ما هي إلا كلمة نطلقها على مجموعة الأفكار، مثلما نطلق كلمة إرادة أو مشيئة على مجموعة من الأعمال. والعقل والإرادة يرتبطان مع فكرة أو رغبة. كما أن العقل والإرادة شيء واحد. فالإرادة فكرة تظل في الشعور إلى أن تتم وتتحول إلى عمل.

ويعتقد سبينوزا أن ما نسميه بالإرادة هو في الحقيقة رغبات أو غرائز أو شهوات نشعر بها ولا تعمل طوال الوقت.

وهكذا، فإن للإنسان إرادة حرة، وذلك لأن ضرورة البقاء تحدد الغريزة والغريزة تحدد الرغبة والرغبة تحدد العمل. وما قرارات العقل إلا رغبات، وليس للعقل إرادة مطلقة حرة. لأن هناك سبب يؤدي بالعقل إلى تلك الرغبة، وذلك السبب يدفعه سبب آخر والسبب الآخر يدفعه سبب مختلف وهكذا إلى مالا نهاية. ولذلك يظن الناس أنهم أحرار لأنهم يحققون رغباتهم. لكنهم يجهلون الأسباب التي تدفعهم إلى الرغبة أو الاشتهاء. ويشبه سبينوزا الشعور بالإرادة الحرة عند الإنسان بحجر يلقى في الهواء بلا هدف، لكن ذلك الحجر يشعر وهو يطير في الهواء أنه يحدد مساره ويختار الزمان والمكان المناسبين تمامًا لسقوطه على الأرض.

وبما أن أعمال البشر تتم وفق قوانين ثابتة مثل قوانين الهندسة، لذلك يجب علينا دراسة علم النفس بشكل هندسي وطريقة رياضية. وعن ذلك يقول سبينوزا: "سأكتب عن البشر وكأنني أكتب عن خطوط وأسطح وأجسام جامدة." ثم يقول: "أنا حريص

على ألا ألعن أو أكره أعمال البشر بل أحاول فهمها. ولذلك لا أعتبر أن العواطف رذائل أو شرور بشرية، لكنها أمور لازمة وضرورية، مثلما هو الحال في ضرورة وجود الحرارة العالية أو البرودة الشديدة في الجو."

وقد أظهر هذا التناول المعتدل على دراسة الطبيعة البشرية التي قام بها سبينوزا تفوقًا قال عنه عالم النفس الشهير "فرويد" إنها: "أكمل دراسة قام بها فيلسوف أخلاقي حتى الآن." وقد امتدحه كثيرون غير فرويد أيضًا.

العقل والأخلاق :

هناك ثلاثة صور فقط للأخلاق، وهي:

- أول تلك الصور هي الصورة التي دعا إليها المسيح وبوذا. من حيث الدعوة إلى الرحمة واللين ونشر المحبة بين الناس.
- والصورة الثانية للأخلاق هي ما دعا إليه مكيافيللي ونيتشه من فضائل العنف والرجولة واعتبار أن القوة هي الفضيلة، كما أنها تعظم توارث الحكم الأرستقراطي.
- والصورة الثالثة هي ما قال به سقراط وأرسطو وأفلاطون. وهي صورة تنكر إمكانية تطبيق النوعين السابقين من الأخلاق بطريقة شاملة. فالعقل الناضج المثقف هو وحده القادر على تحديد متى يجب أن يسود الحب ومتى يلزم أن تتحكم القوة. والفضيلة في نظر سقراط وأفلاطون وأرسطو هي العقل، وهم يدعون إلى نظام حكم يجمع بين الأرستقراطية والديموقراطية.

هذه هي صور الأخلاق المثالية الثلاث كما رآها المسيح وبوذا ونيتشه وسقراط وأفلاطون وأرسطو. فالفضيلة الأولى هي الحب والفضيلة الثانية هي القوة والفضيلة الثالثة هي العقل.

وبدون أن يدري، يوفق سبينوزا بين هذه الفضائل المتنافرة بطريقة مبدعة ويجعلها في وحدة واحدة منسجمة مع بعضها، فيقدم لنا نظامًا أخلاقيًا من أفضل ما توصل إليه الفكر الحديث.

حيث يبدأ بجعل السعادة هدفًا للأخلاق، ويعرفها بأنها الشعور باللذة وعدم الشعور بالألم. لكنهما أمران نسبيان وليسا مطلقين. فاللذة إذن هي انتقال الإنسان من الكمال

الأقل إلى كمال أكثر اكتمالاً. وتأتي اللذة من زيادة شعور الإنسان بقوته. والألم هو حالة انتقال الإنسان من الكمال الأعظم إلى الكمال الأقل، ويستخدم لفظ الانتقال من درجة إلى أخرى من درجات الاكتمال هذا لأن الكمال التام ليس من صفات الإنسان.

يقول سبينوزا: "أنا أعلم أن العاطفة تعني أن هناك أوضاع للجسد تزيد فيه القدرة على العمل وهناك أوضاع أخرى تقلل القدرة على العمل أو تقيدها. كما أعلم في الوقت ذاته أن هناك أفكارًا توافق تلك الأوضاع."

فالعاطفة أو المشاعر ليست خيرًا أو شرًا في ذاتها ولكن ذلك يكمن في مقدار ما تزيده في قوتنا أو ما تنقصه منها.

ولا يطلب سبينوزا من الإنسان أن يضحي من أجل الآخرين، فهذا يعتبر لينًا وتسامحًا أكثر من اللازم. وهو يرى أن الأنانية صفة ضرورية لأعلى الغرائز الإنسانية وهي غريزة الحفاظ على النفس. ويرى سبينوزا أن "الإنسان لا يهمل ما ينفعه إلا إذا كان يرجو خيرًا أعظم منه." وسبينوزا لا يرى أي شيء في ذلك. فإذا كان عقل الإنسان لا يطلب ما هو متعارض مع الطبيعة فلا شيء عليه. كما أنه على كل إنسان أن يحب نفسه ويبحث عما يفيده. وهكذا فإن أساس الفضيلة هو ما يفعله الإنسان ليحافظ على بقائه. وهكذا تشتمل سعادة الإنسان على قوة الإنسان وقدرته على حماية وجوده.

وسبينوزا مثل نيتشه لا يؤمن بالتواضع، وهو يرى أنه نوع من التملق وأنه يدل على الضعف والعجز، بينما تنبع كل الفضائل في نظره من القوة والقدرة. ومن هذا المنطلق، فإن تأنيب الضمير والندم والاعتذار من النواقص وليست من الفضائل. وهي أمور تزيد من شقاء الإنسان وضعفه. لكننا في نفس الوقت نجد أن سبينوزا يكره أيضًا التكبر والفخر والخيلاء ويفضل الاعتدال. فليس هناك من يتأثر بالتملق والمدح مثل ذلك المتكبر المغرور.

وهكذا نجد هذا الفيلسوف الكبير يقدم لنا أخلاق إسبارطه. لكنه يخفف من تلك الطبيعة الأخلاقية في موضوعات أخرى فيقول إنه مندهش من كثرة الحسد والحقد والكراهية وتحقير الناس لبعضهم. ولا يجد علاجًا يخلصنا من كل الأمراض الاجتماعية سوى التخلص من كل المشاعر السيئة . وهو يرى أن ذلك أمر ممكن وسهل. وأن الكراهية والبغضاء يمكن التغلب عليها بالحب.

ورغم نزعة الحب المسيحية هذه، إلا أن مجمل الأخلاق عند سبينوزا هي أخلاق يونانية أكثر منها مسيحية. وهو يتفق مع سقراط تمامًا في أن الفضيلة هي المعرفة.

ويتحدث سبينوزا عن الغرائز فيقول إنها عظيمة كقوة دافعة لكنها خطيرة إن أصبحت مرشدًا لنا، فكل غريزة تحتاج إلى إشباع رغباتها وبالتالي يتم إهمال المصلحة الشخصية العامة. وأي شر ينزل بالناس ناتج عن الإفراط في الطمع والخصام والشهوات. كما أن كل عاطفة مرتبطة بجزء من الجسد ولا تتأثر بها باقي أجزاء الجسد. والعواطف من التطرف الذي يمنع الإنسان من التفكير سوى في موضوع واحد لا يفكر في شيء سواه. كما أن تلك اللذة أو الألم المرتبطة بجزء واحد من أجزاء الجسم لا فائدة منها مطلقًا.

وهذا هو ما جاء به من قبل سقراط والرواقيون، لكن سبينوزا أضاف موضوعًا هامًا. فقد أشار إلى أنه يدرك أن العاطفة عمياء وأن العقل يموت إن تجرد من العاطفة. والعاطفة لا يسيطر عليها سوى عاطفة مضادة لها أقوى منها.

كما يرى سبينوزا أن العاطفة لا تظل عاطفة إذا ما تكونت عنها فكرة واضحة في ذهن الإنسان. وبمعنى أوضح، كلما استطاع العقل تحويل ما فيه من عواطف إلى أفكار أصبح أقوى وابتعد عن التأثر بالعواطف الجامحة. وإن كانت شهوات الإنسان نابعة من فكرة غير واضحة، فإنها تعتبر عاطفة. أما إن نشأت عن فكرة صحيحة وواضحة، فهي فضيلة محمودة. وكل ما يقوم به الإنسان ويعتمد على العقل عمل فاضل. ولا فضيلة في رأيه إلا بالعقل.

وتتمشى أخلاق سبينوزا مع فكرته عما وراء الطبيعة. فالعقل فيما وراء الطبيعة يحاول إدراك القانون المحرك للأشياء الجزئية المحسوسة. والعقل في موضوع الأخلاق يحاول وضع ضوابط تنظم رغبات الإنسان المتضاربة. وبعد وضع تلك الضوابط يستطيع الإنسان أن يلتزم في سلوكه بما يمليه عليه العقل. وبالعقل والخيال معًا يمكن للإنسان أن يتوقع ما يحتمل أن يحدث، وهذا يمكنه من تحرير نفسه من كثير من القيود.

وهكذا يتمكن الإنسان من تحقيق حريته، فالحرية الحقيقية هي السيطرة على العقل واستخدامه بفاعلية، كما أن الحرية الحقيقية تعني أيضًا التخلص من العواطف الجامحة التي لا تهتدي بالعقل. أي أن الإنسان حر بقدر ما هو عالم وعاقل. وحتى

تكتمل إنسانيتك تحرر من تحكم الغرائز فيك ولا تتحرر من نظام المجتمع من حولك. وهذه هي حكمة الإنسان. وهذا الإنسان الحكيم الذي وصفه سبينوزا يختلف عن الإنسان الأرستقراطي الذي وصفه لنا أرسطو والإنسان ذو المثل العليا الذي وصفه نيتشه. إنه أكثر ألفة وهدوءًا واتزانًا.

والحكماء عند سبينوزا هم من الصالحين بفضل عقولهم وقدرتهم على البحث وحبهم لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم. والإنسان العظيم لا يعني أنه فوق مستوى الآخرين وفوق مستوى الإنسانية. وكونك عظيم لا يعني أنك أعلى من الآخرين. بل معنى تلك العظمة أنك تترفع على شهواتك وتتحكم في نفسك. فتحكم الإنسان في نفسه هو أعظم الحريات. وهي حرية أنبل وأرقى مما يسميه الناس بحرية الإرادة، لأن إرادة الإنسان ليست حرة. وعلى الرغم من ذلك فليس للإنسان أن يدعي بأن إرادته ليست حرة ولذلك فإنه ليس مسئولاً عن سلوكه وأعماله وأخلاقياته.

كما أن ذلك الاعتقاد بجبرية الإنسان يهذب أخلاقنا ويعلمنا ألا نكره أحدًا أو نسخر منه أو نغضب منه. وذلك لأن الناس في الحقيقة أبرياء مما يقترفون من أخطاء. لذلك لابد أن نتعامل برحمة مع الأشرار، لأنهم لا يدركون أن ما يفعلونه هو الشر بعينه.

كما أن تلك الجبرية تساعدنا على تحمل متاعب الحياة وآلامها، فجميع الأشياء تسير وفقًا لقوانين الله الأبدية. وقد تعلمنا محبة الله وتقبل قوانين الطبيعة بسرور.

• الدين والخلود :

من الغريب أن سبينوزا دعا في فلسفته إلى حب العالم، بالرغم من أنه عاش منبوذًا ووحيدًا ومطاردًا. وقد عاش بعض الوقت وهو يؤمن بأن العالم يسير وفق قانون غامض. لكن شعوره الديني حول ذلك العالم إلى شيء محبوب جدًا. كما أنه حاول دمج رغباته الخاصة مع النظام الشامل للأشياء من حوله، ليصبح جزءًا لا ينفصل عن الطبيعة (التي هي الله[1] !!). وهو يقول: "أعظم الخير هو معرفة

(١) - حاشا لله ... هذا خلط للمفاهيم من جديد. فبعد أن يقدم لنا تعريفه للذات الإلهية وهو تعريف مشابه لتعريف الموحدين، يعود سبينوزا إلى الخلط والتداخل. فيخلط الأمور ويقول إن الطبيعة والله شيء واحد (حاشا لله)، وهذا خلط معهود في أعمال كثير من فلاسفة هذا الكتاب فيما يخص تعريف الذات الإلهية وإني أبرأ لله الواحد الأحد من كل ذلك. (المترجم)

العلاقة بين العقل والطبيعة كلها." والحقيقة أننا أجزاء من نظام هذا الكون. وما أجسامنا إلا خلايا في جسد الجنس البشري، وما عقولنا إلا ومضات ساطعة تعتبر جزءًا من ذلك الضوء الأبدي. وبما أن الإنسان جزء من كل، فإنه خالد بخلود ذلك الكل. وسيظل العقل الإنساني خالدًا وهو الذي سيدرك الأشياء. وكلما فهمنا الأشياء أكثر كلما كانت أفكارنا خالدة أكثر.

وفي هذا الموضوع يبدو سبينوزا أكثر غموضًا من أي موضوع آخر مما أثار نزاعًا لا ينتهي بين المفسرين لما كتب والشارحين له.

وقد اختلف هؤلاء المفسرون فيما يقدمه سبينوزا من معنى للخلود. يقول بعضهم إن الخلود يعني الشهرة والسيرة الحسنة التي تظل باقية حتى بعد موت الإنسان، فأجمل ما في تفكيرنا وحياتنا هو ما يظل أثرًا خالدًا. أي أن الإنسان يبقى بعد موته بسيرته الحسنة وأعماله التي قام بها فاستفاد منها كثيرون. لكن سبينوزا في هذا الموقف غير المتوقع منه يشبه أرسطو، فكيف له أن يتحدث عن الخلود وفي نفس الوقت ينكر بقاء الذكرى الشخصية[1]. كما أنه لم يعتقد أن هناك ثوابًا وعقابًا في الآخرة[2]. لذلك فإنه يقول إن من يرون أن الفضيلة هي إذلال للنفس، أبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة فهمًا صحيحًا. فالفضيلة هي السعادة والحرية الكاملتان. والفضيلة ليس لها أجر لأنها هي النعيم والسعادة في حد ذاتها.

---

(١) - لا أدري كيف ينكر اسبينوزا ذلك رغم أنه يرى من حوله أعمال من سبقوه بقرون لا تزال محفوظة ولا يزال الناس يذكرون أعمال السابقين إن كانت خيرًا أو شرًا. وتاريخ العالم مليء بالأسماء التي لا تبدأ عند أفلاطون أو الإسكندر الأكبر ولا تنتهي عند أدولف هتلر. (المترجم)

(٢) - لا غرابة في ألا يؤمن سبينوزا بالثواب والعقاب، فقد أجهد نفسه بتعريف لله عز وجل ذكرناه في هذا الفصل، وقرأ من أجل الوصول إلى ذلك التعريف في اليهودية والمسيحية والبوذية وفي الفلسفات اليونانية ونيتشه وكثيرون غيره وفي النهاية توصل إلى تفسير غامض للذات الإلهية، فهو يؤمن بالوحدانية ثم يعود ويشير إلى تداخل الذات الإلهية مع الطبيعة (أبرأ إلى الله من كل ما قاله سبينوزا وكل ما قاله كثير من فلاسفة هذا الكتاب في هذا الموضوع وما أعرض هذه الآراء إلا لتوضيح ما قالوه فقط). وإني أتعجب من أنه -وكثيرين غيره من الفلاسفة- لم يشر من بعيد أو قريب إلى تعريفات للموضوعات الدينية التي ناقشها في دين الإسلام أو يقول إنه قرأ فيه، بالرغم مما فيه من وضوح ودقة. لكن سبينوزا وأمثاله من فلاسفة الغرب لم يهتموا إلا بتراث الغرب والبحث في كتبهم فقط. وإن ذكروا شيئًا من الشرق يكون من الوثنية أو عن الهجوم على الإسلام. (المترجم)

وهكذا انتهى كتاب الأخلاق، ومن النادر أن نجد كتابًا يحتوي على هذا الكم من الأفكار الكثيرة والمتعددة. إلا أنه لا يزال يثير حوله الكثير من النقد ومحاولات الشرح والتفسير. فهذا الكتاب يحتوي على أفكار خاطئة في الميتافيزيقا وأفكار غير مكتملة في علم النفس، كما أنه تناول ما جاء في اللاهوت بطريقة غامضة.

• ٥- الرسالة السياسية:

كتب سبينوزا "الرسالة السياسية" في الأعوام الأخيرة من نضجه. لكنه مات فجأة قبل إتمام كتابة هذا الكتاب. وجاءت هذه الرسالة غنية بالأفكار بالرغم من أنها مختصرة جدًا. لذلك نشعر بالأسى أنه مات عندما بلغ قمة النضج. وقد وضع سبينوزا فلسفة سياسية تعبر عن آمال الديموقراطيين والأحرار في هولندا في عصره. وقد أصبح ما وضعه في الفلسفة السياسية أساسًا لما يقوم به آخرون ووصل إلى ذروته في أيام الثورة الفرنسية فيما بعد.

ويرى سبينوزا أن الفلسفة السياسية تنبع من التمييز بين حياة الإنسان البدائية وحياته بعد أن أصبحت المجتمعات منظمة. وهو يرى أن الناس كانوا يعيشون في فوضى بلا قانون أو نظام اجتماعي، وهم في نفس الوقت لا يدركون ما هو الخطأ وما هو الصواب، ولا ما هو العدل وما هو الظلم. كانت القوة عندهم هي الحق. ولم يكن هناك ما هو خير وما هو شر.

ولم يكن هناك أي شريعة أو قانون يحكم البشر. لذلك فلا يوجد ما يوقف الصراع بين الناس أو يمنع الخيانة أو الغضب أو المشاعر السيئة. لذلك فقانون الغابة هذا سمح بقيام العداوة بين الدول، حيث لا وجود للمحبة بين تلك الدول. وذلك لأن القوانين والأخلاقيات لا توجد إلا في ظل سلطة مشتركة معترف بها من الدولتين.

إلا أن احتياج الناس لبعضهم استدعى وجود التعاون بينهم. وهذا أدى إلى الانتقال من سيادة القوة إلى سيادة القانون والحق. كما أدى ذلك إلى وجود المجتمعات المنظمة إلى تمكنها من حماية نفسها من الأخطار التي قد تتعرض لها. لكن الناس لم يولدوا مواطنين اجتماعيين ويجب تدريبهم على ذلك.

إلا أن النزعة الفردية سائدة في كل الناس، ففي نفوسهم ثورة على القانون والتقاليد والأعراف. كما أن الغرائز الاجتماعية أضعف من الغرائز الفردية وتحتاج إلى دعم وتعزيز. إذن فلابد من فرض النظام وتدريب الناس على الالتزام به.

والهدف الرئيسي من وضع نظم الدولة ليس هو التحكم في الناس أو تخويفهم، ولكن الهدف هو أن يعيش كل فرد في جو تام من الأمن والاطمئنان، وفي توافق مع جيرانه لا يظلمهم ولا يظلمونه.

أكرر مرة أخرى أن الغرض من إقامة الدولة ليس أن يتحول المواطن إلى وحش مفترس أو آلة صماء. فالهدف الحقيقي من إقامتها كما قلنا هو تمكين عقول المواطنين من العمل في أمن وأمان. وهذا يعني أن الهدف من الدولة هو الحرية.

لكن ماذا يفعل الناس لو قيدتهم القوانين وكُبتت حرياتهم. وماذا لو فضلت الدولة مصالح الطبقة الحاكمة، فتسلطت على الشعب واستغلته من أجلهم، واستأثر الحكام بالمناصب العليا والمزايا ولم يفسحوا مجالاً ليشارك فيها غيرهم؟ يرد سبينوزا بوجوب طاعة القوانين حتى وإن كانت جائرة وظالمة، وذلك طالما أن الحكومة لا تمنع حرية الكلام والاعتراض على الأوضاع القائمة بالطرق السلمية. وذلك لأن هذه الطرق لابد أن تؤدي إلى التغيير. ويعترف سبينوزا بأن حرية الاعتراض وحرية الكلام لها مساوئها، إلا أنه لا يمكننا تجنب تلك المساوئ فلا أحد معصوم من الخطأ.

وكلما زادت الحكومة من مقاومتها لحرية الكلام والمعارضة، كلما زادت مقاومة الشعب لها. فالناس لا تطيق كبت ما يعتقدون أنه الحق وأنه من اللازم تطبيقه. وعندئذ لا يعتبر الناس أن كراهية القوانين ومقاومة الحكومة عار، بل شرف عظيم.

وينهي سبينوزا كلامه كما لو كان مواطنًا أمريكيًا صالحًا بقوله: "لو جعلنا حرية الكلام والنقد مطلقة، وجعلنا الأعمال وحدها هي مبررات التقاضي بين الناس، لتجردت الثورة من كل أسبابها ومبرراتها."

فكلما قلت رقابة الدولة على عقل المواطن، زاد المواطن ودولته صلاحًا. وبينما نجد أن المواطن يرى ضرورة لوجود الدولة، إلا أنه لا يثق بها. وهو يعلم تمام العلم أن السلطة مُفسدة ولا يرضى بانتقال سلطة الدولة من أجسام الناس وأعمالهم إلى نفوسهم وأفكارهم أيضًا، لأن ذلك يؤدي إلى توقف نمو المجتمع وموته. كما أنه

يعارض سيطرة الدولة على التعليم، وخاصة التعليم الجامعي. فالمدارس الحكومية تقدم لطلابها ما تريد الدولة نقله إليهم، أما المدارس الحرة فتقدم لطلابها علومًا وفنونًا أكثر تقدمًا. لكن سبينوزا لم يستطع تقديم بديل وسط بين التعليم العام والتعليم الخاص حتى يستفيد الجميع.

فإذا تمكن الناس من حرية التعلم ونالوها كاملة فلن يضاروا من حكومتهم أيًا كان نوعها، سواء كانت ديموقراطية أو أرستقراطية أو ملكية أو غير ذلك. لكن سبينوزا نفسه يفضل الحكومة الديموقراطية، ويرى أن أي نوع من الحكومات يوفي بالغرض المطلوب مادام يهدف إلى تعليم الفرد وتوجيهه إلى مراعاة المصالح العامة قبل مصلحته الشخصية، وهذه هي مهمة المشرعين. ويصف سبينوزا الحكومة الملكية بأنها قادرة على العطاء إلا أنها مستبدة وظالمة وعسكرية. وهو يعارض أن تكون السلطة كاملة في يد رجل واحد، يقول: "يظن الناس أن وجود السلطة في يد رجل واحد يؤدي إلى الأمن والسلام. إلا أننا وفي الواقع، نجد أن الدول الديموقراطية أقل عمرًا وأكثر تعرضًا للعصيان والتمرد. وأن دول الحكم الفردي المطلق تدعي السلام، إلا أنه أتعس سلام يعرفه البشر. وأن النزاع فيها يكون بين الآباء والأبناء وليس بين الحر والعبد. وخلاصة القول إن سلطة الرجل الواحد تؤدي إلى العبودية وليس إلى السلام."

ثم يضيف كلمة عن الدبلوماسية السرية فيقول: "يدعى أصحاب السلطة المطلقة ضرورة إدارة شئون الدولة في سرية وكتمان حرصًا على سلامة الدولة ومنعًا لأخبارها من أن تتسرب للعدو، وهذا أمر مستحيل في دولة تدعي الديموقراطية وتطلع شعبها على سياستها. ومثل تلك الأقوال لا تهدف إلا إلى إخفاء أسرار الطغاة عن الشعب. فمن يتصرف في شئون الشعب سرًا، يُخضع هذا الشعب لسيطرته المطلقة. وهذا يعني أنه يتآمر على شعبه في حالة السلام كما يتآمر على عدوه في حالة الحرب.

وهكذا فإن الديموقراطية هي أفضل أنواع الحكم، على أن تطبق نظام الخدمة العسكرية برواتب محددة. والعيب الوحيد لهذا النظام هو إمكانية وصول أي فرد إلى أي منصب بالانتخاب. ولتجنب الوقوع في هذا الخطأ يجب حصر المناصب العليا في الدولة وجعلها من حق الكفاءات وذوي الخبرة والمهارة فقط. وذلك لأن الشعب قد

ينتخب أكثره جهلاً وبلادة ليتولى أعظم المناصب. وهذا يحدث بسبب قدرة هؤلاء على تملق الشعب وخداعه. فالجماهير تتغلب عليها العواطف والأهواء. وهذا يؤدي إلى ثورة أصحاب القدرات والمهارات والكفاءة إن عاجلاً أو آجلاً على الرغم من أنهم أقلية. وهنا تتحول "الديموقراطية إلى أرستقراطية وتتحول الأرستقراطية إلى الملكية" وهكذا يفضل الناس في نهاية الأمر حكم الطاغية المستبد على الفوضى.

لكن ينبغي على الديموقراطية أن تحل تلك المشكلة الخطيرة التي تواجهها، وذلك بحصر حق الترشح في الانتخابات على من هم ذوي كفاءات وقدرات وعلم وخبرات، وغلق أبواب المناصب الكبرى أمام الدجالين والمنافقين والجهلاء والفاسدين.

وربما ألقى سبينوزا أضواء من عبقريته على مشكلات السياسة المعاصرة تلك لو كان قد عاصرها وهو يكتب هذه الرسالة القيمة. مع العلم بأنها مجرد مسودة لكتاب مات قبل أن يكمله بكتابة فصل كامل عن الديموقراطية.

• ٦- تأثير سبينوزا:

لم يضع سبينوزا مذهبًا فلسفيًا إلا أن أفكاره امتدت بعد موته وانتشرت. وقد كان اسمه يبعث على الكراهية والبغضاء لمن جاءوا بعده لعدة أجيال متتالية. وكان الناس يتحدثون عنه باحتقار. لكن الناقد "ليسنج" أعاد لسبينوزا شهرته وذكره الطيب. فقد قال إنه لا توجد فلسفة إلا فلسفة سبينوزا، ثم بعد عدة سنوات أثار كتابه "الأخلاق" انتباه معلمي اللاهوت.

كما اهتم جوته[١] بسبينوزا، فقال بعد أن قرأ كتاب "الأخلاق" أول مرة: "هذه هي الفلسفة التي كنت أتوق إليها." وطغت تلك الفلسفة بعد ذلك على كل شعره ونثره وتفكيره ومجرى حياته. كما أن كل من فخته وهيجل[٢] قد دمجوا فلسفة سبينوزا مع فلسفة كانط عن المعرفة والمنطق. وتأثر به أيضًا شوبنهور ونيتشه وبرجيسون. وقد

(١) - يوهان جوته (١٧٤٩-١٨٣٢م): أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، وقد ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة التي ما زالت أرفف المكتبات في العالم تقتنيها كواحدة من ثرواتها، وقد تنوع أدب جوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية والشعر وأبدع في كل منها، واهتم بالثقافة والأدب الشرقي واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق ومقبل على العلم، ومتعمق في دراساته. (المترجم)

(٢) - فلاسفة ألمان معروفون. (المترجم)

اعترض هيجل على فلسفة سبينوزا وقال إنها جافة ولا حياة فيها، إلا أنه قال بأن من يريد أن يكون فيلسوفًا فليقرأ سبينوزا أولاً.

وقد كان لسبينوزا تأثير كبير على إنجلترا أثناء الثورة. فقد تأثر به أدباء وشعراء مثل كوليردج ووردسورث وشيلي[١] الذي اقتبس من "رسالة الدين والدولة" وبدأ في ترجمتها، كما وعده بايرون[٢] بوضع مقدمة لها. إلا أن هذه الترجمة وقعت في يد "ميدلتون" فاعتقد بأنها من إنتاج شيلي فأطلق عليها اسم "تأملات طالب" كما قامت "جورج إليوت[٣]" بترجمة كتاب "الأخلاق". لكنها لم تنشره. وقد يكون سبنسر اطلع على تلك الترجمة بحكم صداقته مع الكاتبة إليوت.

وبعد قرنين من موت سبينوزا، جُمعت تبرعات لإقامة تمثال له، فجاءت الأموال من كل مكان في العالم. وأزيح الستار عن التمثال في احتفال كبير في عام ١٨٨٢م. وقال عنه "ارنست رينان[٤]" ما يلي: "ويل لمن يمر أمام هذا التمثال ويهين ذلك الفيلسوف العظيم. فسوف يعاقب مثلما يعاقب كل خسيس لئيم. هذا الرجل العظيم يشير من خلال هذا التمثال إلى جميع الناس فيدلهم على طريق الهدى الذي يعرفه جيدًا."

(١) - شعراء بريطانيون معروفون. (المترجم)

(٢) - لورد بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤م) (شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي. كانت قصائده تعكس معتقداته وخبرته. شعره تارة ما يكون عنيفاً وتارة أخرى رقيقاً، وتتصف قصائده في أغلب الأحيان بالغرابة. (المترجم)

(٣) - هي الروائية الإنجليزية ماري آن إيفانز(١٨١٩-١٨٨٠م) وكانت تكتب تحت اسم «جورج إليوت». (المترجم)

(٤) - إرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م): يهودي وهو واضع نظرية اليهود الأشكانذي (تقول إن اليهود الأشكانزي هم أتراك هاجروا إلى دول غرب أوروبا بعد دخولهم في اليهودية) وهو فيلسوف فرنسي وخبير في لغات الشرق الأوسط وحضاراته ومؤرخ وكاتب. وقد اشتهر بأعماله التاريخية عن بدايات الديانة المسيحية ونظرياته السياسية وخاصة موضوع القومية والهوية. (المترجم)